وقاده الروح إلى الصحراء... وجرّبه إبليس
مت ٤: ١-١١

غريب أن يبدأ يسوع حياته في الصحراء وهو الذي تجسّد ليكون من البشر ومعهم. وغريب أن يكون ذهابه الى الصحراء تحت تأثير الروح القدس. والأغرب أن يكون يسوع ابن الله عرضة لتجارب الشيطان. غريب هذا النص وغريب كيف أخبر القديس متى هذا الحدث. فكيف لنا أن نفهم نصاً بهذه الغرابة ؟

نتساءل أولاً عن القصد من ذكر الصحراء في وقت كنّا ننتظر من يسوع، الذي سمع الآب يعلن "هذا هو ابني الحبيب"، أن يجوب المدن والقرى ليبشّر بأن الله أبوه قد أرسله ليعلن الخلاص. لكي نجاوب على هذا التساؤل، لا بدّ لنا من التذكير بأن متى كتب انجيله ليبرهن لليهود بأن يسوع هو المسيح الذي ينتظرونه، وبأنه قد تمّم كل انتظاراتهم، وحقق ما لم يستطع الآباء والأنبياء أن يحققوه. من هذا المنطلق، يعود القديس متى الى حادثة خروج شعب الله من عبودية مصر والتجربة التي عاشوها في عبورهم الصحراء. فالصحراء هي المكان المحكّ. انها مكان الوحدة والتجرّد والمحنة. هي أرض المغامرة لأنها أرض العبور من عالم الى آخر. الصحراء أرض الولادة لأن الانسان لا يخرج منها كما دخل. إنها عالم العقبات الكبيرة، عالم السراب، لكنها أيضاً عالم الثبات والشجاعة ومحاربة العطش والرغبات ... الصحراء هي عالم الرجاء. عاش شعب الله قديماً هذه المحنة فلم يستطع الخروج منها ظافراً. عاش فيها الألم والثورة رغم اهتمام الله الذي أرسل له المنّ والسلوى ليأكل، وأعطاه الماء من الصخر ليشرب، كما وهبه القوة والشجاعة ليكمل المسيرة نحو أرض الموعد، لكنهذا الشعب تخاذل فسقط. لقد فهم الأنبياء الصحراء كرمز لزمن الخطبة، إنها زمن الامتحان الضروري لإبرام العهد.

في هذه التجربة لم يستطع شعب الله ان يقاوموا تجارب إبليس فسقطوا أمام الجوع وخانوا عهد إيمانهم طالبين من موسى العودة الى العبودية. وفي الصحراء لم يبقَ الشعب اليهودي أميناً لمحبة الله فسجد أمام عجل من ذهب صنعه بيده. وفي الصحراء نسي اليهود الأخلاقيات والمباديء الدينية فسقطوا أمام شهواتهم والرغبات كما يخبرنا سفر تثنية الاشتراع . لقد ظهر شعب الله على حقيقته في الصحراء حيث لا يمكن للانسان أن يحيا بالمظاهر، فانكشف ضعف إيمانه.

الى هذه الصحراء قاد الروح يسوع الذي خرج من ماء المعمودية بعد أن شهد الآب أنه "ابني الحبيب الذي عنه رضيت". انقاد الابن الحبيب الى الصحراء حيث سيتغلّب على التجارب التي مرّ بها آباؤه ولم ينجحوا. قاده الروح الذي حلّ عليه في المعمودية الى الصحراء: لقد حان الوقت أمام يسوع لتقرير رسالته. هذه الرسالة بدأت في الصحراء، في الخلوة والصوم طيلة أربعين يوماً وأربعين ليلة. بعدها

جاع يسوع فهو ليس رجل صحراء كما يوحنا المعمدان، بل اعتاد العيش في المدن والقرى (متى ١١/١٩)؛ ولم يكن تلاميذه يمارسون الصوم كما تلاميذ يوحنا والفريسيين. ومع ذلك صام صوماً طويلاً وقاسياً وتهيّأ لمواجهة العمل الذي ينتظره. كل رسالة هي بحاجة الى صوم وصلاة لتكون مثمرة. فالصوم والصحراء يحرّران النفس أآنهما يحدّدان الأولويات. إن جوهر الانسان لا يكمن في تجميع الأرزاق ولا بالاهتمامات الكثيرة، ولكن بالتجرّد والفقر وبساطة القلب والروح. يكمن جوهر الانسان في علاقته مع من خلقه ودعاه، فكيف نسبر هذا الجوهر إلا في الصمت الكلّي؟

صَمَت يسوع وتجرّد كلّياً حتى جاع فجرّبه الشيطان. غريب أمر هذا الشيطان الذي انتظر لحظة الضعف ليهاجم خصمه. لكننا نعرف جيداً أن التجربة والمحنة لا تنفصلان عن الرسالة. لم يأتِ يسوع العالم ليعلّم فقط، لم يأتِ ليؤسّس مدرسة للحكمة أو ليبني معتقداً من المعتقدات الكثيرة التي يضجّ بها العالم. أتى يسوع العالم ليخلّص الناس وينتزعهم من الشر، لذلك واجهه الشيطان أمير الشر ولن يكفّ عن ذلك طيلة حياة يسوع العلنية. إنها حرب طويلة، معركة باردة يخوضها الشيطان ضد من جاء لينتزع من بين براثنه الانسان تحفة الله الذي أضعفته التجارب وغلبته. إن العدو الحقيقي هو العدو غير المنظور، إنه الشر الذي يتآكل قلب الانسان بطرق متعددة ومتنوّعة : الخطيئة، المرض، الموت... ويسوع هو من يشفي ويخلّص ويحرّر... لكنّه أمام رفض الانسان لا يستطيع إلاّ أن يسامح ويرجو.

لم يفعل يسوع شيئاً ليحرّر ذاته من ضربات الشر. لم يعطِ علامة من السماء ليقنع الآخرين أنه إبن الله ولم ينزل عن الصليب جواباً على تحدّي المتحدّين. قاده الروح ليجرّبه إبليس : نعم إن التجربة تأتي دوماً من الشرير وهي غير منفصلة عن الوجود الانساني. فهل يستطيع المعلّم أن يتجنّب ما سيمرّ به تلاميذه؟ لم يقبل يسوع بذلك، لكنه حوّل التجربة الى امتحان نجح فيه، وأظهر أن ابن الله قادر أن يجاهد ويربح ضد الشرّير. لم يقبل يسوع بالتجربة لأنها اتفاق مبطّن مع الشر، لم يقبل بأن تتفق إرادته مع إرادة الشرير الذي حاول إقناعه ليسير في طريق الخطيئة. يحاول الشرير بنواياه السيئة أن يوقع الإنسان فيتكلم ويقترح ويحاول الخداع وإيقاظ الضمائر والغرائز والكبرياء؛ هذا ما فعلته الحية التي جرّبت حواء، والشيطان الذي ضرب أيوب ليكفر بالله، وها هو الآن يهاجم يسوع من خلال إيقاظ الطمع والكبرياء وحب السيطرة وهي رغبات طبيعية. إنه يراوغ ويدور حوله كما الأسد في الصحراء محاولاً إفتراسه. استطاع الشرير أن يقود يسوع الى المدينة المقدّسة، الى الهيكل. يسوع هوتحت سيطرة خارجية فالتجربة إذاً قوية جداً ومترّرة وعنيفة الى حدّ ما.

التجربة الأولى: "إن كنت ابن الله مر هذه الحجارة تصبح خبزاً".

تجربة دقيقة أكثر مما تُظهر. "إن كنت ابن الله" أي أن على يسوع أن يبرهن أو أن يختبر بذاته إن كان هو فعلاً من عناه الصوت بقوله "هذاه هو ابني الحبيب" عند المعمودية. وهي أيضاً التجربة الثانية "إن كنت ابن الله إرم بنفسك الى تحت". بالنسبة الى يسوع هذا يعني تحقيق المزمور "يأمر ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك" (مز ٩١/١١-١٢). لكن يسوع هو الابن حقاً والابن لا يجرّب أباه. إنه لا يشك بصوت الآب وليس بحاجة الى علامة له أو برهان للآخرين. تكرّرت هذه التجربة مراراً في حياة يسوع ورافقته حتى الصليب حين سمع من يقول له "إن كنت ابن الله إنزل عن الصليب" (متى ٢٧/٤٠). لكن الابن لا يقوم بآية من أجل ذاته، بل يقبل إرادة الآب الى النهاية. لم يقبل يسوع أن يواجه الآب كمن يطلب براهين حسّية، بل كإنسان واثق تماماً بمحبته "ليس بالخمز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من فم الله". بين يدي الله لا يحتاج الانسان الى براهين.

التجربة الثانية أدقّ من الأولى وترتكز على رحمة الله وعلى الثقة به. كلّنا نبحث عن براهين تؤكّد لنا صدق إيماننا (رؤى، أحلام، آيات، ظهورات، شفاءات، رسائل...)، نركض الى الأمكنة التي تحدث فيها أشياء خارقة؛ نريد إثباتات وبراهين. لكن الإيمان لا يُبنى بهذه الطريقة، بل يكبر في حنايا القلب، في الرغبة في الانتظار والاندهاش من حضور الله والتعلّق به. يولد الايمان ويتغذّى من معرفة الله الشخصية، ومن الأناجيل والتقاليد ومن الجماعة الكنسية. صحيح أن صدمة روحية بإمكانها أحياناً أن توقظ فينا الرغبة بالإيمان، وأن تفتح فينا عيون القلب. لكن حدثاً كهذا يبقى نقطة انطلاق لا يجب العودة اليها. أن نطلب الآيات هو أن نكون الجيل الفاسد الذي حذّرنا يسوع منه (متى ١٦/٤). يسوع الذي يعرف محبة أبيه ويثق به يدعونا نحن أيضاً أن نعرفه ونثق به.

التجربة الثالثة هي تجربة المسيح المسيطر على كل ممالك الأرض ومجدها. إنها تجربة النجاح السهل والسريع. بدل المسيرة الطويلة والشاقة والمؤلمة التي تمرّ بالصليب، يقترح الشيطان على يسوع طريقاً أسهل وأسرع :"أسجد لي واعبدني". جوهر هذه التجربة هو القبول بوسائل الشيطان للوصول الى الغاية التي ربما تكون شريفة وجيّدة. وسائل الشيطان معروفة : الغش والإغواء والحقد والعنف إلخ. قاوم يسوع التجربة لكن تلاميذه وقعوا في بعض الأحيان. لم يتوانَ الشيطان عن إظهار أنه لأجل "قضية حسنة" يمكننا إتخاذ وسائل "غير حسنة". ألا نقوم نحن بذلك؟

أمام هذه التجربة كان يسوع واضحاً "لله وحده نسجد وإياه وحده نعبد". نصل الى الناس بواسطة طرق الله وحده، طريق الصبر والاحترام والحرية. سلك يسوع طريقاً وحيداً هو طريق الحب حتى النهاية، إنه طريق الصليب. لقد أعلن ابن الله بعد قيامته أن "كل سلطان أعطي لي في السماء وعلى الأرض" (متى ٢٨/١٨) ولكن ليس من يد الشيطان.

إن تجارب يسوع هي تجاربنا نحن أيضاً، فهو رأس الجسد الذي قهر التجربة وباتكالنا عليه نستطيع أن نهرب من إغواءات المجرِّب لأنه يعلّمنا كيف نقاوم باستنادنا الى كلمة الله التي تنيرنا وتدلّنا الى الطريق والحق والحياة، فمن الخطر أن نتبع رغبتنا الطبيعية حيث ينتظر المجرِّب ولا حصن لنا إلا كلمة الله.

ينتهي النص بالقول "وتركه الشيطان، وإذا ملائكة تقترب منه وتخدمه. لقد تلقّى يسوع خبز السماء، طعاماً سماوياً. رفض ابن الله أن يجرِّب الله فأمر الله ملائكته بخدمة الإبن الأمين لمحبة أبيه وثقته به. وضع يسوع ذاته بين يدي الله فاهتم الله به؛ لم يقبل بأن يكون مسيحاً باتكاله على قواه البشرية الشخصية، بل تمّم إرادة الآب وترك له أمر الاهتمام به، فكان الإبن الحق الذي استطاع أن يغلب الشرير ويخلّص البشر من براثنه.

علّمنا يا رب أن نحبك كل يوم، أن نتمّم إرادتك في كل لحظة، أن نطلب الشجاعة منك فلا ندخل التجربة بل نجاهد لننجح في كل امتحان يمرّ به إيماننا بك وثقتنا بمحبتك. لك المجد الى الأبد.